ميكيلانجلو

العبقرية الملهمة

MICHELANGELO

للدكتور احمد موسى

— ٤ —

تكاد تكون شخصية ميكيلانجلو من أعقد الشخصيات؛ ذلك لتعدد نواحي دراسته وتحديد مواهبه الفنية فإذا استعرضت تاريخ حياته فى مختلف المصادر ، وجدت أن كل مؤرخ فنى تفرغ لتناوله من ناحية معينة ، بغية الوصول إلى تعريف محدود له ، ينتهى بوضع أساس يتفق وعظمته .

وقد قرأنا عنه الكثير ، وشاهدنا من إنتاجه وآثاره مافيه الكفاية ، ووجدنا بعض مؤرخى الفن يدرسه كمهندس معمارى ، وآخر يحلله كنحات ، وثالث كنقاش ، ورابع كمصور ، وخامس كشاعر ، وسادس كعاشق دفع به الهوى إلى تلحين ملحمات غزلية ألفها فى ساعات إلهامه .

وقد أخذنا على عاتقنا دراسة ميكيلانجلو دراسة فنية مبسطة ولكنها شاملة ، وتناولناه بالبحث كنحات عظيم . ولكننا لا نكون قد أدينا رسالة الفن تمام التأدية إذا لم ندرسه كمصور أيضاً ، حتى تتم بذلك معرفتنا له من ناحيتيه البارزتين وهما النحت والتصوير ؛ ولا سيما وهو لم يكن ليقل عظمة فى الأخير عن الأول ، بل إنه قد استطاع إظهار أدق وأعمق مشاعره النفسية ، وأفكاره الملهمة فى التصوير الذى أخرجه على أعظم جانب من الإجادة وحسن الانسجام .

وإذا كنا قد علمنا أنه ترك بعض منحوتاته دون إكمال ، فإنه يهمنا أن نعلم أنه لم يترك من مصوراته إلا ما ندر غير كامل ، ومن هنا نستطيع أن ندرسه دراسة وافية كمصور ، ونصل بها إلى الأعماق التى لم نستطع الوصول إليها فى النحت الذى قررنا أن اتجاهه فيه كان مثالياً كما كان كذلك فى التصوير ، وهى ظاهرة طبيعية يحتمها التناسق فى الإنتاج الفنى والخلق المبتكر .

وإذا كان ميكيلانجلو قد ظهر أمامنا بعد استعراض منحوتاته ، دائم الطموح نحو الكمال الانسانى ، ساعياً وراء المثل العليا فى التكوين الانسانى والموضوعى ، مهتماً تمام الاهتمام باختيار المواقف العنيفة التى خرج بها عن المألوف من ناحية الانشاء الوضعى والتى من مقتضاها أن ظهرت تفاصيل الجسم على أقوى ما يمكن ظهورها به ؛ فإن هذا نفسه كان الاتجاه الذى سار فيه والهدف الذى رمى اليه فى التصوير الذى لم يجمع فيه بين المناظر الشخصية مفردة كانت أو مجتمعة وبين الطبيعة إلا فيما ندر ، مخالفاً فى ذلك ما رأيناه عند ليوناردو دافينشى (راجع المقالين الخاصين به)

ويشعر المشاهد لمصوراته عموماً كأنه واقف يستعرض تماثيل مجسمة لا صور أو لوحات مسطحة ، ومن هذا نستطيع أن نكون لفنه التصويرى طابعاً مميزاً وروحاً خاصاً ، وهو أنه كان مصوراً نحاتياً أكثر منه مصوراً بحتاً ، إذ أن كل مصوراته تمت بصلة كبيرة إلى قواعد النحت ، أكثر من انتمائها إلى قواعد التصوير .

على أن مصوراته هذه لم تكن مرسومة بالزيت كما يعتقد كثير من الناس ، بل كانت تصويراً على الجص الطازج . وهذه الطريقة التى تتلخص فى التصوير بألوان الماء على طبقة رقيقة من الجص أو الجير قبل جفافه هى التى يعبر عنها رجال الفن بتصوير الفرسكو « Al Fresco »

وقد صور بعض مصوراته بطريقة أخرى . وذلك أنه أخذ الألوان الطبيعية من الأرض « Tempera » وأضافها إلى محلول الغراء والعسل ، وعند ما أراد التصوير بها أضاف اليها الغراء الكثيف أو بياض البيض واستعملها بعد ذلك مباشرة

ولعلنا بدرسه على ضوء أبسط أصول تاريخ الفن نضطر إلى تقسيم تراثه إلى ثلاث مراحل تستغرق كل مرحلة منها حوالى الثلاثين سنة ، على اعتبار انه عاش حوالى التسعين

وتنحصر المرحلة الأولى بين سنة ١٤٧٥ ، ١٥٠٥ وهى التى قضى معظمها كنحات وقد سبق لنا درسها ، وله فيها ثلاث قطع لاتزال باقية ، أولاها صورته «دفن المسيح» وثانيتها «مادونا مانشيستر» وتشمل مريم ويسوع ويوحنا وملائكة أربعة والروح الغالبة على هذه اللوحة ظهور البساطة بأجلى معانيها مع عظمة التكوين الانسانى وهذه وسابقتها محفوظتان بجاليرى لندن غير كاملتين .

وقطعته الثالثة تمثل العائلة المقدسة، وهى صورة مستديرة

ـ ش ١ ـ محفوظة بمتحف أوفيسين بفلورنسا، صورها سنة ١٥٠٤

(ش ١)

وتمثل مريم والطفل وخلفهما يوحنا ومجموعة أطفال فى مؤخر اللوحة .

أنظر إلى مريم وكيف أسندت الطفل بوضع أطراف يدها اليمنى تحت إبطه واسنادها له بيسراه ثم تأمل الجمال البادى على ملامحها ، وحسن إخراج الملابس وثناياها . إلى جانب جلستها الرائعة ، وظهور قدمها اليمنى بحالة فنية لا ترتفع إلى مثلها غير عبقرية ميكيلانجلو .

(ش ٢)

ثم شاهد ما ارتسم على وجه يوحنا من علامات الحب والاشفاق على الطفل يسوع . ولاحظ شعر الرأس والذقن إلى جانب الحياة التى تشع من عينيه

ورسم الأطفال فى مؤخر الصورة أقوياء التفاصيل والتكوين الجسمانى وهذا من مميزاته الخاصة ، وميله إلى قواعد النحت أكثر من ميله إلى قواعد التصوير

وتعطيك النظرة الشاملة للمجموع الإنشائى للصورة فكرة هائلة عن جمال الوضع الأولى والتصميم الكلى للوجه . فالرؤوس الثلاثة تكاد تكون بارتفاع واحد . ومع هذا لم تخرج على أصول الانسجام فضلا عن بعدها عن الازدحام الذى يؤدى غالباً إلى ضعف التوجيه . هذا إلى هدوء الألوان وبعدها عن الحدة .

وله مصورات تخطيطية بين سنة ١٥٠١ ، ١٥٠٥ منها ما مثل دراسات لرؤوس بمشاهدتها تعطيك فكرة صادقة